الآفة الثامنة والعشرون
الاحتقار أو الانهزام النفسى

والآفة الثامنة والعشرون التى يبتلى بها كثيرٌ من المسلمين، وكانت من بين أسباب كثير مما نعانى نحن المسلمين اليوم، إنما هى : « الاحتقار أو الانهزام النفسى » .

وحتى يبرأ من هذه الآفة مَنْ ابتلى بها، ويبقى صحيحًا معافى مَنْ سَلَّمَه الله ـ عز وجل ـ منها، فإننا سنتناولها من خلال هذه الجوانب :

أولا : تعريف الاحتقار أو الانهزام النفسى :

الاحتقار لغة : والاحتقار لغة : الإذلال، والإهانة، والتصاغر، يقال : احتقره، حَقَره وَحقُر الشىء حَقْرا، وحقارةً، فهو حقير : ذلَّ، وهانَ، وصغر[1] . وفى الحديث : « إياكم ومحقِّرات الذنوب »[2] : صغائر، واحدتها : محقَّرة.

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور ٤/٢٠٧، ٢٠٨، والمعجم الوسيط ١/١٨٧، مادة: «حقر» بتصرف.

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد فى : المسند ١/٤٠٢، ٤٠٣ من حديث عبد الله بن مسعود ؛ أن رسول اللهﷺ قال : « إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول اللهﷺ ضرب لهن مثلا، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادا فأجَّجوا نارا وأنضجوا ما قذفوا فيها»، ٥/٣٣١ من حديث سهل بن سعد رفعه : « إياكم ومحقرات الذنوب، وإنما مثل محقِّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاؤوا بعود، وجاؤوا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » وإسناده ـ كما يقول ابن حجر فى : فتح البارى ١١/٣٢٩ : « حسن »، ٦/ ٧٠، ١٥١، من حديث عائشة؛ أن رسول اللهﷺ قال : « يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله ـ عز وجل ـ طالبا » .

وأخرج ابن ماجه فى : السنن: كتاب الزهد : باب ذكر الذنوب ٢/١٤١٧ رقم (٤٢٤٣) نحوه من حديث عائشة قالت : قال لى رسول اللهﷺ : « يا عائشة، إياك ومحقِّرات الأعمال، فإن لها من الله طالبا »، وعقب عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٤/٢٤٥ بقوله : « هذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات »، والدارمىُّ فى : السُّنن : كتاب الرقاق : باب فى المحقرات ٢/٣٠٣ من حديث عائشة بلفظ أحمد، وأورده ابن حجر فى فتح البارى ١١/٣٢٩ من حديث سهل بن سعد رفعه، وعقب عليه بقوله : «أخرجه أحمد بسند حسن، ونحوه عند أحمد، والطبرانى من حديث ابن مسعود، وعند النسائى وابن ماجه عن عائشة ؛ أن النبىﷺ قال لها : « يا عائشة، إياك ومحقِّرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا»، وصححه ابن حبان .

والانهزام لغة : الانكسار والتشقق، نقول : انهزم العدوُّ : انكسرت شوكته، وشُقَّ صفُّه، وانتصر عليه، فهو منهزم، ومهزوم، والهزيمة فى القتال : الكسرُ، والفل [١] .

اصطلاحا : أما الاحتقار أو الانهزام النَّفسى فى الاصطلاح، فهو : استصغار النفس الخيِّرة، واستذلالها، والاستهانة بها أو انكسارها أمام ما يمليه عليه أعداؤها من النفس الأمارة بالسوء، ومن شياطين الإنس والجن، ومن الدنيا بشدائدها، وامتحاناتها، ببريقها، وزخارفها وزيناتها، بصورة تشعرها أنها ليست أهلاً لعمل أى برٍّ أو معروف، حتى وإن كان هذا البرُّ وذلك المعروف بسيطا أو يسيرا .

ثانيا : بعض مظاهر الاحتقار أو الانهزام النفسى مع بيان حكمه فى ميزان الإسلام :

وللاحتقار أو الانهزام النفسى صور يعرف بها، ومظاهر تدلُّ عليه وأهم هذه الصُّور، وتلك المظاهر :

١ ـ القعود عن العمل لدين الله ـ عز وجل ـ من الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ومجاهدة الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا، بدعوى أن الشر قد تفشى وانتشر، وأن المنكر قد استفحل وتمكن، ومهما عملنا فلن نغيِّر شيئا، ولن نجنى سوى التعب والمشقة .

٢ ـ اعتزال المجتمع بل الهجرة إلى الشِّعاب والأودية ورءوس الجبال اعتمادا على الدعوى التى قدمنا، واحتجاجا بقوله ﷺ : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمٌ يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر يفرُّ بدينه من الفتن » [٢] .

٣ ـ الخضوع والانقياد والاستسلام للأهواء، وما يمليه شياطين الجن والإنس، والدنيا ببريقها وزخارفها، بدعوى عدم القدرة على المواجهة .

٤ ـ الخوف من الباطل، والانقياد له فى كل ما يقول، وما يفعل، بدعوى أنه

---

(١) انظر : لسان العرب ١٢/ ٦٠٨ ـ ٦١١، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٨٥، مادة : « هزم » بتصرف كثير .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب من الدين الفرار من الفتن ١/ ١١، وكتاب بدء الخلق : باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ٤/ ١٥٥، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن : باب العُزلة ٢/ ١٣١٧ رقم (٣٩٨٠)، ومالك فى : الموطأ : كتاب الاستئذان : باب ما جاء فى أمر الغنم ص ٦٠١ رقم (١٦)، وأحمد فى : المسند ٣/ ٦، ٣٠، كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه مرفوعا .

يملك كل شيء، ونحن مهما أوتينا من قوة، ومن سلطان فلن نعمل شيئا، وبالتالى فلن نغير شيئا .

٥ ـ رفض أيّ مسئولية قيادية حتى وإن كانت فى أمر جزئى بسيط، بدعوى عدم الفقه فى المسئوليات، بل عدم القدرة على ما تتطلبه هذه المسئوليات من أعباء، وتبعات، وهلم جرًا .

والاحتقار بالمعنى الذى ذكرنا من استصغار النفس ، والاستهانة بها أمام دور الإنسان ، بل المسلم ورسالته فى هذه الأرض ، قبيح مذموم نهى عنه الشارع الحكيم ، إذ يقول الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾ [آل عمران] . ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] . ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) ﴾ [محمد] . ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٠] . ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾ [آل عمران] . ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٣] . ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [المائدة: ٤٤] . ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾ [الأحزاب] .

وإذ يقول ﷺ : « لا يحقر أحدكم نفسه » قالوا : يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : « يرى أمرًا لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله ـ عز وجل ـ له يوم القيامة : ما منعك أن تقول فى كذا، وكذا ؟ فيقول : خشية الناس، فيقول : فإياى كنت أحق أن تخشى »[1] ، « احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز . . . » الحديث[2] .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن : باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٢/ ١٣٢٨ رقم (٤٠٠٨)، وعقب عليه البوصيرى ٤/ ١٨٢ بقوله: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات»، وأحمد فى: المسند ٣/ ٣٠، ٤٧، ٤٨، ٧٣، ٩١، ٩٢ كلاهما من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه مرفوعا، واللفظ لابن ماجه، ولأحمد فى بعض رواياته .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب القدر : باب فى الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله ٤/ ٢٠٥٢ رقم (٢٦٦٤)، وابن ماجه فى: السنن : المقدمة: باب =

وانطلاقا من نهى الشارع الحكيم عن الاحتقار أو الانهزام النفسى زكى يوسف الصديق عليه السلام نفسه، فقال: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف].

يقول ابن عطية ـ رحمه الله : « وطلب يوسف للعمل إنما هى حِسْبة منه عليه السلام لرغبته فى أن يقع العدل . . . فجائز للفاضل أن يعمل، وأن يطلب العمل إذا رأى ألا عوض عنه، وجائز أيضا للمرء أن يثنى على نفسه بالحق إذا جهل أمره » (١) .

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله : « وفيه دليل على جواز طلب الولاية، إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل، وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان فى يد الجائر أو الكافر » (٢) .

ويقول الألوسى ـ رحمه الله : « وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه بالحق إذا جُهل أمره، وجواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان من يد الجائر أو الكافر، وربما يجب عليه الطلب إذا توقف على ولايته إقامة واجب مثلا ، وكان متعينا لذلك ، وما فى الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ : « يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها »، وارد فى غير ما ذكر » (٣) .

ومدح النبى ﷺ نفسه بقوله: «أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له. . .»(٤)،

= فى القدر ١/ ٣١ رقم (٧٩)، وكتاب الزهد : باب التوكل واليقين ٢/ ١٣٩٥ رقم (٤١٦٨)، وأحمد فى: المسند ٢/ ٣٦٦، ٣٧٠، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعا، ولفظه عند مسلم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل الخير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا، وكذا، ولكن قل : قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان »، كلهم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

(١) انظر : المحرر الوجيز ٩/ ٣٢٤، ٣٢٥ .

(٢) انظر : مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥٤ و تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٤/ ٢/ ٢٨٦ .

(٣) انظر : روح المعانى ١٣/ ٥/ ٥ .

(٤) جزء من حديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب النكاح : باب الترغيب فى النكاح ٧/ ٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب النكاح : باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم ٢/ ١٠٢ رقم (١٤٠١)، والنسائى فى : السنن : كتاب النكاح : باب النهى عن التبتل ٦/ ٦٠ رقم (٣٢١٧)، والكبرى: كتاب النكاح: باب النهى عن التبتل ٣/ ٢٦٤ رقم (٥٣٢٤)، وأحمد فى : المسند ٣/ ٢٤١، ٢٥٩، ٢٨٥، كلهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا، ولفظه كما عند البخارى : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا كأنهم =

« أنا سيد الناس يوم القيامة » [١] ، « أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة » [٢] إلى آخر ما جاء عنه فى هذا الشأن .

ومدح عثمان ﷺ نفسه بقوله : . . . ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « من حفر بئر رومة فله الجنة »، فحفرتها ؟ ألستم تعلمون أنه قال : « من جهز جيش العسرة فله الجنة »، فجهزتها ؟ قال : فصدقوه بما قال [٣] .

يقول ابن حجر فى شرح هذا الحديث : « وفيه جواز تحدث الرجل بمناقبه عند الاحتياج إلى ذلك لدفع مضرة أو تحصيل منفعة، وإنما يكره ذلك عند المفاخرة، والمكاثرة، والعجب » [٤] .

= تقالوها، فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ؟ قد غفر الله ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا، فأنا أصلى الليل أبدا، وقال آخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر : أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبدا،فجاء رسول الله ﷺ فقال:« أنتم الذين قلتم :كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ٤/ ١٦٣، ١٦٤، وكتاب التفسير : باب ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ ٦/ ١٠٥ ـ ١٠٧، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١/ ١٨٤ ـ ١٨٦ رقم (١٩٤)، وكتاب الفضائل : باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ٤/ ١٧٨٢ رقم (٢٢٧٨)، والترمذى فى: السنن : كتاب صفة القيامة والرقائق والورع: باب ما جاء فى الشفاعة ٤/ ٥٣٧ ـ ٥٣٩ رقم (٢٤٣٤)، والدارمى فى : السنن: المقدمة : باب ما أعطى النبى ﷺ من الفضل ١/ ٢٧، ٢٨، وأحمد فى: المسند ١/ ٢٨١، ٢٨٢، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢/ ٤٣٥، ٤٣٦، ٥٤٠، ٣/ ٢، ١٤٤، كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا، إلا الدارمى فإنه عنده من رواية أنس بن مالك، وزاد أحمد رواية له من طريق ابن عباس، وأخرى من طريق أنس بن مالك .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان، باب قول النبى ﷺ : « أنا أول الناس يشفع فى الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعا » ١/ ١٨٨ رقم (١٩٦) من حديث أنس ابن مالك ﷺ مرفوعا بهذا اللفظ، وأخرج نحوه ابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد : باب ذكر الحوض ٢/ ١٤٣٨ رقم (٤٣٠١) من حديث أبى سعيد الخدرى : أن النبى ﷺ قال : « إن لى حوضا ما بين الكعبة وبيت المقدس، أبيض مثل اللبن، آنيته عدد النجوم، وإنى لأكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة » إلا أن فى إسناده عطية العوفى وهو ـ كما يقول ابن حجر فى التقريب ٢/ ٢٤ رقم (٢١٦): صدوق يخطئ كثيرا كان شيعيا مدلسا، يعنى بهذا: أنه ضعيف كما ذكر الشهاب البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٤/ ٢٥٩، وأحمد فى : المسند ٢/ ٣٤١، ٤٥١ من حديث أبى هريرة مرفوعا بلفظ : « ما من الأنبياء نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيًا أوحاه الله ـ عز وجل ـ إلى، وأرجو أن أكون أكثرهم تبعا يوم القيامة » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الوصايا : باب إذا وقف أرضا أو بئرا واشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين ٤/ ١٥ من حديث عثمان بن عفان ﷺ أنه حين حوصر أشرف عليهم، وقال: أنشدكم، ولا أنشد إلا أصحاب النبى ﷺ ألستم تعلمون : أن رسول الله ﷺ قال : « من حفر رومة فله الجنة »، فحفرتها، ألستم تعلمون أنه قال : من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزتها ؟ قال : فصدقوه بما قال .

(٤) انظر : فتح البارى ٥/ ٤٠٨ .

واستأذن أبو موسى الأشعرى على عائشة ﵂ فأذنت له ، فقال لها : يا أماه ، أو يا أم المؤمنين، إنى أريد أن أسألك عن شيء، وإنى استحييك فقالت : لا تستحى أن تسألنى عما كنت سائلا عنه أمك التى ولدتك، فإنما أنا أمك، قلت : فما يوجب الغسل ؟ قالت : على الخبير سقطت، قال رسول الله ﷺ : « إذا جلس بين شعبها الأربع ومس الختان الختان، فقد وجب الغسل »[1] .

وقال ابن مسعود ﵁ ثقة بنفسه،وتقديرًا لها : والله الذى لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله، إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه »[2] .

قال ابن حجر تعليقا على كلام ابن مسعود هذا : « وفى الحديث جواز ذكر الإنسان نفسه بما فيه من الفضيلة بقدر الحاجة، ويحمل ما ورد من ذم ذلك على من وقع ذلك منه فخرا أو إعجابا »[3] .

وهؤلاء المشاهير علماء المسلمين ولاسيما المؤلفون منهم يثقون بأنفسهم فيمدحونها، حتى يقول الواحد منهم عن نفسه : « ما رأيت مثل نفسى » وهكذا .

أما الاحتقار أو الانهزام النفسى أمام نعمة الله وعظمته، فمرغوب فيه محمود، وهو التواضع الذى مدحه الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى قوله: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان] ، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران] ، وقال: ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الصافات] ، ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الحيض : باب نسخ الماء من الماء ووجوب الغسل بالتقاء الختانين ١/ ٢٧١، ٢٧٢ رقم (٣٤٩) من حديث أبى موسى الأشعرى عن عائشة مرفوعا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب فضائل القرآن : باب القراء من أصحاب النبى ﷺ ٦/ ٢٣٠، ومسلم فى : الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه ﵄ ٤/ ١٩١٣ رقم (٢٤٦٣) ، كلاهما من حديث مسروق عن عبد الله بن مسعود موقوفا عليه، وقد بين ابن حجر فى : فتح البارى ٩/ ٤٨ بواسطة المنقول سبب قول ابن مسعود هذا، وخلاصته : أنه طلب منه أن يقرأ على قراءة زيد بن ثابت، فقال : « وكيف تأمروننى أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت من فى رسول الله ﷺ مثله »، واللفظ للبخارى .

(٣) انظر : فتح البارى ٩/ ٥١ .

ومدح النبى ﷺ ذلك فى قوله : « الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى »[١] .

وانطلاقا من دعوة الشارع الحكيم إلى هضم النفس، وأنها لا تساوى شيئا فى جنب عظمة الله، ونعمته، جاءت الأخبار عن السلف بهضم النفس، والتواضع لله، وعدم الترفع على عباده بحال، يقول بكير بن الأشج : إن عبد الله بن سلام خرج من حائط له بحزمة حطب يحملها، فلما أبصره الناس، قالوا : يا أبا يوسف، قد كان ـ يعنى فى ولدك، وعبيدك ـ من يكفيك هذا، قال : أردت أن أجرب قلبى هل ينكر هذا[٢] .

ويقول المبارك بن فضالة : إنه سمع الحسين يقول: يا ابن آدم، طأ الأرض بقدمك، فإنها عن قليل قبرك، وأنك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك[٣] .

وأثر عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) : أن أمراء المماليك الذين اشتراهم الملك نجم الدين أيوب لا زال حكم الرق مستصحبا عليهم لبيت مال المسلمين، وأنه لابد من تصحيح هذا الخطأ الشنيع، وذلك ببيعهم، وشرائهم، ثم عتقهم مرة ثانية. وكان من جملة هؤلاء نائب السلطنة، فغضب عليه لهذا الأمر لما فيه من إهانة بعد أن أصبحوا ذوى مناصب فى الدولة، وقد استدعى نائب السلطنة الشيخ عز الدين فلم يجبه، فانزعج نائب السلطنة لذلك وقصد بيته مع جماعة لقتله، فخرج ولد الشيخ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى ، فأخبر أباه، فما اكترث لذلك ، ولا تغير ، وقال : يا ولدى، أبوك أقل من يقتل فى سبيل الله، وخرج الشيخ وهو مطمئن، فحين وقع بصره على النائب يبست يده ووقع السيف منها، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعوا له، وخضع لرأيه فى البيع، وقال له: ففيم تصرف ثمننا ؟ قال فى مصالح المسلمين، قال: من يقبضه ؟ قال : أنا، فتم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا فى المزاد العلنى، وغالى فى ثمنهم، وقبضه، وصرفه فى وجوه الخير، ثم أعتقهم بعد ذلك، رحمه الله، ورضى عنه[٤] ، وعلى أثرها لقب الشيخ ببائع الملوك .

---

١. سبق تخريجه ص ١٦٢ .

٢. الخبر أورده ابن المبارك فى : كتاب الزهد : باب التواضع ص ٢٨٧ رقم (٨٣٣) من حديث بكير بن الأشج عن عبد الله بن سلام بهذا اللفظ، غير أن فيه ابن لهيعة المصرى، وهو ـ كما يقول ابن حجر فى: التقريب ١/ ٤٤٤ رقم (٥٧٤) : صدوق، من السابعة، خلط بعد احتراق كتبه، ورواية ابن المبارك وابن وهب عنه أعدل من غيرهما، وله فى مسلم بعض شىء مقرون .

٣. الخبر أورده ابن المبارك فى : كتاب الزهد : باب التواضع ص ٢٩٢ رقم (٨٥٢) من حديث المبارك بن فضالة عن الحسن بهذا اللفظ .

٤. انظر : طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى ٨/ ٢١٦ بتصرف كثير، وعنه أوردها رضوان مختار بن غربية فى مقدمته لكتاب : الإمام فى بيان أدلة الأحكام لعز الدين بن عبد السلام ص ٢٦، ٢٧ .

وفحوى هذه القصة : احتقار الشيخ عز الدين نفسه أمام حماية دين الله ومنهجه، وهى من جانب آخر دليل على ما ينبغى أن يكون عليه المسلم من الثقة التامة بالنفس، وعدم احتقارها فى مواجهة المنكر، ومجاهدة الباطل .

ثالثا : أسباب الاحتقار أو الانهزام النفسى :

وللاحتقار أو الانهزام النفسى أسباب تؤدى إليه، وبواعث توقع فيه، وأهم هذه الأسباب، وتلك البواعث :

١ ـ إهمال المرء من التعويد على المسؤولية بل من التشجيع :

فقد يكون إهمال المرء من التعويد على المسئولية، بل من التشجيع من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار، والانهزام النفسى ؛ ذلك أن التعويد على المسئولية، بل التشجيع يمنح المرء ثقة بنفسه، واحتراما وتقديراً لها، بحيث يوقن أنه ليس فى الدنيا ما يكون صعبا، أو بعيد المنال، وحين يهمل المرء من التعويد على المسئولية، ومن التشجيع يوسوس له الشياطين، وتسول له النفس الأمارة بالسوء أنه ما أهمل بهذه الصورة إلا لأنه لا يحسن أو لا يجيد شيئا، فيفقد الثقة بنفسه، بل يأخذ فى احتكارها، ويكون الانهزام النفسى .

ولا جرم أن نشير هنا إلى أننا لا نعنى بالمسئولية القيادة، بقدر ما نعنى بها التكليف بما يوجب التبعة، والمساءلة، وهذا الذى نعنيه من العموم بحيث يشمل الحياتين جميعا الدنيا والآخرة ، فتكليف المرء بالاهتمام ببدنه ، وروحه ، وعقله ، وخلقه ، ودعوة الآخرين، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، ومجاهدة الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا، هذه وغيرها مسئولية .

وكذلك لا نعنى بالتشجيع الثناء أو المدح دون قيود أو ضوابط، بل لابد أن يكون محفوفا بالقيود، والضوابط الشرعية، وأهمها : الخلو من الكذب والمبالغة، وأن يكون مبنيًا على الظن أو التخمين الغالب لا على اليقين والقطع، فذلك مرده إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ بأن يقول : أحسب فلانا كذا، والله حسيبه ولا أزكى على الله أحدًا، وخير ما يشهد بصحة هذا السبب حركة التاريخ والواقع :

أما حركة التاريخ : فقد طالعتنا من قديم : أن آباءنا وأجدادنا ولا سيما عرب الجزيرة العربية ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الثقة بالنفس، والعزة والإباء والشمم، تلك التى عرفوا بها قبل الإسلام إلا بالتعويد على المسئولية منذ نعومة أظفارهم بل

والتشجيع المستمر، وجاء الإسلام وأكد على هذا، بل حوله من مجرد أن يكون عادة وعرفا إلى أن يكون شرعة ودينا، فقال الحق ـ سبحانه : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾ [التوبة] ، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [الحجر] .

وعرفنا من سيرته ﷺ أنه عمل فى صباه فى رعى الغنم، وفى التجارة، وساعد فى تجديد الكعبة، وشارك فى حرب الفجار، وحلف الفضول، وأن هذه الأعمال أسهمت فى إعداده وتهيئته لحمل أمانة الدعوة، والبلاغ، والجهاد بعد ذلك .

وقد أفتى الحنفية بأن للأب أن يؤاجر ابنه الصغير فى عمل من الأعمال . . . من باب النظر ـ أى رعاية المصالح ـ ولأن ذلك من باب التأديب والتهذيب والرياضة، ومثل الأب فى ذلك الوصى، والقاضى [١] .

ولعل سندهم فى هذا ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : خدمت رسول الله ﷺ يوما، حتى إذا رأيت أنى قد فرغت من خدمتى، قلت: يقيل ـ أى ينام بعد الظهر ـ ويعنى به رسول الله ﷺ فخرجت إلى صبيان يلعبون قال : فجئت أنظر إلى لعبهم، قال : فجاء رسول الله ﷺ فسلم على الصبيان وهم يلعبون، قال : فدعانى رسول الله ﷺ فبعثنى إلى حاجة له، فذهبت فيها، وجلس رسول الله ﷺ فى فيء ـ أى ظل ـ حتى أتيته ، واحتبست عن أمى عن الإتيان الذى كنت آتيها فيه ، فلما أتيتها قالت : ما حبسك ؟ قلت : بعثنى رسول الله ﷺ فى حاجة له، قالت : وما هى ؟ قلت : هو سر، قالت : فاحفظ على رسول الله ﷺ سره ، قال ثابت ـ راوى الحديث عن أنس : قال لى أنس : لو حدثت به أحدًا من الناس ـ أو لو كنت محدثا به ـ لحدثتك به يا ثابت [٢] .

وأما الواقع : فهو ما نرى وما نشاهد من أن أبناء البادية والقرى غالبا ما يكونون أكثر ثقة بأنفسهم من أبناء المدينة أو الحاضرة ؛ نظرا لأن قسوة البادية والقرية أوجبت عليهم أن يدربوا على المسئولية فى حال الصبا، والأولاد فى الغرب الآن يوضعون على المحك، وهم لا يزالون صغارا حتى إذا ماشبوا كان منهم القادة، والمبتكرون،

---

(١) انظر : بدائع الصنائع للكاسانى ٤/ ١٧٨، ١٧٩ بتصرف .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه ٤/ ١٩٢٩ رقم (٢٤٨٢)، وأحمد فى : المسند ٣/ ١٠٩، ١٧٤، ١٩٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٥، كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لأحمد فى إحدى رواياته .

والمخترعون، وهكذا فإن التعويد على المسئولية بل التشجيع يولد الثقة بالنفس، وإهمال ذلك ينشأ عنه الاحتقار أو الانهزام النفسى .

٢ ـ انتقاص الآخرين وتحقيرهم للمرء على الدوام :

وقد يكون انتقاص الآخرين وتحقيرهم للمرء على الدوام من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار أو الانهزام النفسى ؛ ذلك أن المرء إذا رأى كل من حوله لا يستحسنون منه شيئا، بل يلاحقونه على الدوام بالانتقاص، والاحتقار، والفشل، فإنه غالبا ما يتأثر بذلك، لا سيما إذا كان فى المراحل الأولى من حياته أو كان مكلفا بالأمر لأول مرة، وتكون العاقبة أن يصاب بالإحباط، والاحتقار أو الانهزام النفسى .

ولعل هذا من بين الأسرار التى من أجلها نهى الشارع الحكيم أن يحقر المسلم أخاه المسلم أو ينال منه بحال، إذ يقول الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ** ﴾ [الحجرات : ١١] .

وإذ يقول النبى ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . . . » الحديث [(١)] .

٣ ـ العيش فى وسط معروف بالانهزام واحتقار النفس :

وقد يكون عيش المرء فى وسط معروف بالانهزام واحتقار النفس من بين الأسباب المؤدية إلى الوقوع فى الاحتقار، والانهزام النفسى، أعم من أن يكون هذا الوسط قريبا وهو البيت، أو بعيدًا وهو المجتمع، ذلك أن المرء شديد التأثر بالوسط الذى يعيش فيه، وعليه فإذا كان هذا الوسط محتقرًا لنفسه أو منهزما أمامها سرت عداوة إلى الآخرين، وأصيبوا هم كذلك بالاحتقار والانهزام النفسى، وقد نبهنا غير مرة فى هذه الآفات إلى ضرورة طهارة ونظافة الوسط الذى يعيش فيه المرء ليسلم من شره، بل ليتداوى إن كانت عدوى الأوساط العفنة قد سرت إليه، وأفسدته .

٤ ـ تمكن حب الدنيا من القلوب

وقد يكون تمكن حب الدنيا من القلوب من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار أو

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

الانهزام النفسى، ذلك أن حب الدنيا إذا تمكن من القلوب حمل على الوقوع فى المعاصى والسيئات لا محالة ، وأقل هذه المعاصى وتلك السيئات ، الشح أو البخل بهذه الدنيا .

وحين يقع المرء فى المعاصى والسيئات على الدوام يسود قلبه، ويصير عليه ران، وربما انتهت الحال إلى قفل هذا القلب، بل الختم عليه والعياذ بالله، ويظهر أثر ذلك فى أمور كثيرة أهمها : القلق، والخوف، والاضطراب النفسى، وكذلك الاحتقار والانهزام النفسى . وواقع العصاة اليوم خير ما يشهد بذلك، ولهذا حذر الشارع الحكيم من الوقوع فى المعاصى والسيئات، وأرشد من وقع فى المعاصى والسيئات ـ لسبب أو لآخر ـ أن يبادر بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الله .

فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) ﴾ [المجادلة] . ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾ [النساء] . ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) ﴾ [الزمر] . ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤) ﴾ [النساء] . ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾ [الجن] . ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾ [الزمر] .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه : «بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا فى معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهوكفارة له، ومن أصاب

من ذلك شيئا ثم ستره الله، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه »، فبايعناه على ذلك [١] .

٥ ـ دوام إخفاق المرء وفشله فى كل ما يقصد :

وقد يكون دوام إخفاق المرء وفشله فى كل ما يقصد من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار، والانهزام النفسى ؛ ذلك أن للنجاح والتوفيق سننا لابد من رعايتها، وحين تهمل أو تهدر هذه السنن كلا يكون دوام الإخفاق والفشل، سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا، وحين يرى المرء نفسه فى إخفاق وفشل على الدوام يسقط فى يده، وربما انتهى به ذلك إلى احتقار نفسه، وهزيمته أمامها، وخير ما يشهد بذلك واقعنا نحن المسلمين اليوم فى صراعنا مع أعدائنا . ومن أجل حماية المسلم من أن تنتهى به الأمور إلى هذا الاحتقار وذلك الانهزام النفسى جاءت دعوة الشارع الحكيم إلى ضرورة الإعداد، والإتقان، والحذر أو أخذ الأهبة والاستعداد فى الأمور البسيطة قبل المركبة، والسهلة قبل الصعبة .

قال تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** (٦٠) ﴾ [الأنفال] . ﴿ **وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (١٩٥) ﴾ [البقرة] . ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** (٧١) ﴾ [النساء] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح :كتاب الإيمان : باب (١١) ١/ ١١، وكتاب مناقب الأنصار : باب وفود الأنصار إلى النبىﷺ بمكة، وبيعة العقبة ٥/ ٧٠، وكتاب الحدود : باب الحدود كفارة، وباب توبة السارق ٨/ ١٩٨، ٢٠١، وكتاب الأحكام : باب بيعة النساء ٩/ ٩٩، وكتاب التوحيد : باب فى المشيئة والإرادة ٩/ ١٦٩، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الحدود : باب الحدود كفارات لأهلها ٣/ ١٣٣٣، ١٣٣٤ رقم (١٧٠٩)، والنسائى فى : السنن الكبرى : كتاب البيعة : باب البيعة على ترك عصيان الإمام ٤/ ٤٢٤، ٤٢٥ رقم (٧٧٨٤، ٧٧٨٥) : وباب البيعة على فراق المشرك ٤/ ٤٢٨ رقم (٧٨٠١) : وباب ثواب من وفى بما عاهد عليه ٤/ ٤٣٥ رقم (٧٨٣٥)، وكتاب الإيمان وشرائعه: باب البيعة على الإسلام ٦/ ٥٣١ رقم (١١٧٣٣)، والنسائى فى : السنن : كتاب البيعة : باب البيعة على الجهاد ٧/ ١٤١، ١٤٢ رقم (٤١٦١) : وباب البيعة على فراق المشرك ٧/ ١٤٧، ١٤٨ رقم (٤١٧٨)، وكتاب الإيمان :باب البيعة على الإسلام ٨/ ١٠٨، ١٠٩ رقم (٥٠٠٢)، كلهم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

وقال ﷺ : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء . . . » الحديث [١] . « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » [٢] .

٦ ـ منافسة ذوى الجد بالقول دون العمل :

وقد تكون منافسة ذوى الجد بالقول دون العمل من بين الأسباب المؤدية إلى الوقوع فى الاحتقار أو الانهزام النفسى، ذلك أن الحياة دنيوية كانت أو أخروية إنما تبنى أساسا على المنافسة والمسابقة، وقد يكون أحد الطرفين جادا يأخذ الأمور بحزم وعزم وقوة، وينتفع بكل مالديه من طاقات وإمكانات، ولا تضيع منه لحظة واحدة هباء أو بددا، ويكون الآخر لاهيا لاعبا لاهم له سوى الكلام والقول أما العمل فهو بمعزل عنه تماما، وبمرور الزمان يجد هذا الأخير نفسه أمام الأول عدما أو فى حكم العدم، وحينئذ لا يملك إلا أن يكون فريسة للاحتقار أو الانهزام النفسى .

ولعل واقعنا نحن المسلمين اليوم أمام واقع أعدائنا خير ما يشهد بصحة ما نقول، إذ عمل هؤلاء وما زالوا يعملون بالليل والنهار، منتفعين بكل ما منحهم الله من طاقات وإمكانات ومواهب، وقعدنا نحن المسلمين، بل غرقنا فى اللهو واللعب حتى سبقونا وتقدموا علينا، بل وأمسكوا بخناقنا، وضيقوا الخناق حول أعناقنا، ولما انتبهنا وأفقنا وأدركنا حقيقة هذا الواقع الأليم المرير واجهناه بالقول دون العمل، وحينئذ لم نستطع السباق أو اللحاق، وصرنا فريسة الاحتقار والانهزام النفسى، وقد جاء عن على ﷺ خبر فيه راو مجهول إلا أن معناه صحيح موافق لضرورة مواجهة الأعداء بالعمل لا بالقول، وإلا ركب أعناقنا هؤلاء، وكان الاحتلال أو ما يعرف الآن بالاستعمار .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الصيد والذبائح : باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة ٣/ ١٥٤٨ رقم (١٩٥٥)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الأضاحى: باب فى النهى أن تصبر البهائم والرفق بالذبيحة ٣/ ١٠٠ رقم (٢٨١٥)، والترمذى فى: السنن: كتاب الديات: باب ما جاء فى النهى عن المثلة ٤/ ١٦ رقم (١٤٠٩) وعقب عليه الترمذى بقوه : « هذا حديث حسن صحيح »، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الذبائح : باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ٢/ ١٠٥٨ رقم (٣١٧٠)، والنسائى فى : السنن الكبرى : كتاب الضحايا : باب الأمر بإحداد الشفرة ٣/ ٦٢، ٦٣ رقم (٤٤٩٤) : وباب حسن الذبح ٣/ ٦٤، ٦٥ رقم (٤٥٠١ ـ ٤٥٠٣)، والنسائى فى : السنن : كتاب الضحايا : باب الأمر بإحداد الشفرة ٧/ ٢٢٧ رقم (٤٤٠٥) : وباب ذكر المنفلتة التى لا يقدر على أخذها ٧/ ٢٢٩ رقم (٤٤١١) : وباب حسن الذبح ٧/ ٢٢٩، ٢٣٠ رقم (٤٤١٢ ـ ٤٤١٤) والدارمى فى : السنن : كتاب الأضاحى : باب فى حسن الذبيحة ٢/ ٨٢، كلهم من حديث شداد بن أوس مرفوعا .

(٢) الحديث أورده الألبانى ومعه سبب وروده فى : سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ١٠٦، ١٠٧ رقم (١١١٣) نقلا عن: مجمع الزوائد وأورد له شواهد يرتقى بها إلى درجة القبول .

إذ أخرج ابن أبى شيبة فى : المصنف من حديث الأعمش عن شهر، عن رجل قال : « كنت عريفـا فى زمن على، فأمرنا بأمر فقال : أفعلتم ما أمرتكم ؟ قلنا : لا، قال : والله لتفعلن ما تؤمرون به، أو لتركبن أعناقكم اليهود والنصارى » [١] .

٧ ـ الكبت أو الاستبداد والقهر :

وقد يكون الكبت أو الاستبداد والقهر من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار والانهزام النفسى، ذلك أن المرء إذا حيل بينه وبين التعبير عما بداخله، وفرض عليه على سبيل الاستبداد والقهر ما لا يقره ولا يرضاه، واستمرت الحال هكذا دون انفراج أو تنفيس أصابه اليأس والقنوط ثم الإحباط والاحتقار والانهزام النفسى .

ومن أجل الوقاية من الوقوع فى ذلك منع الشارع الحكيم القهر، فلا إكراه فى الدين، ولا إكراه فى تزويج المرأة، ولا إمامة لحاكم أو أمير، أو ذى سلطان إلا بمشورة وبيعة . . . وهكذا .

قال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦]. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُم ﴾ [الشورى : ٣٨] .

وعن خنساء بنت خذام الأنصارية : أن أباها زوجها وهى ثيب فكرهت ذلك، فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت له، فرد نكاحها [٢] .

٨ ـ عدم الثقة بالله وبمنهجه :

وقد يكون عدم الثقة بالله وبمنهجه، من بين الأسباب التى توقع فى الاحتقار والانهزام النفسى، ذلك أنه سبحانه ذو الكمال والجلال، لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وقد امتن على عباده بمنهاج معصوم فيه سعادة الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس] .

---

(١) انظر : كتاب الفتن ٥/ ١٢٦ رقم (١٩١٠٣)، وعنه نقل علاء الدين الهندى فى : كنز العمال ٥/ ٧٨٠ رقم (١٤٣٦٧) .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب النكاح : باب إذا زوج ابنته وهى كارهة ٧/ ٢٣، وأبو داود فى : السنن : كتاب النكاح : باب فى الثيب ٢/ ٢٣٣ رقم (٢١٠١)، والنسائى فى : السنن : كتاب النكاح : باب الثيب يزوجها أبوها وهى كارهة ٦/ ٨٦ رقم (٣٢٦٨)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب النكاح : باب من زوج ابنته وهى كارهة ١/ ٦٠٢ رقم (١٨٧٣)، كلهم من حديث الخنساء بنت خذام الأنصارية مرفوعا، واللفظ لأبى داود .

ووعد بإعلاء شأن هذا المنهج، والتمكين له فى العالمين، فقال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح] . ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور] .

وطلب سبحانه منهم أن يصدقوا ذلك تصديقا لا شك فيه ولا ريب أبدًا ، فقال : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التغابن] .

ومن شك فى الله وفى منهجه، ولم يثق بهما وكله الله إلى نفسه بحيث يبقى وحيدًا أمام حزب الشيطان، وحينئذ لا يسعه إلا أن ينهار وأن ينهزم نفسيا، وربما انقلب فصار من حزب هؤلاء الخاسرين .

٩ ـ عدم إدراك نعمة الله في النفس وفى الكون :

وقد يكون عدم إدراك نعمة الله فى النفس وفى الكون، من بين الأسباب التى توقع فى الاحتقار والانهزام النفسى ؛ ذلك أن الله قد امتن علينا فى أنفسنا بنعم لا تعد ولا تحصى من السمع، والبصر، والفؤاد، واعتدال القامة، والأيدى، والأرجل، واللسان، والشفتين، ومن الأعضاء الداخلية ما لا يعلمه إلا هو، كما امتن علينا بمثلها فى الكون المحيط بنا من الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم،والشجر والدواب، والأنهار والبحار والهواء، والأرض والسماء، وهلم جرا فقال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل] . ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد] . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل] . ﴿ وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات] . ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠]. ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤، النحل : ١٨] .

ومن غفل عن هذه النعم، أو لم يدركها إدراكا حقيقيا، ورأى انتفاع الأعداد واستثمارهم لها، فإنه يصاب لا محالة باليأس والإحباط أو الانهزام النفسى .

١٠ ـ الغفلة عن العواقب المترتبة على الاحتقار أو الانهزام النفسى :

وقد تكون الغفلة عن العواقب المترتبة على الاحتقار أو الانهزام النفسى من بين الأسباب المؤدية إلى الوقوع فى الاحتقار أو الانهزام النفسى ؛ إذ من غفل عن العواقب الضارة، والآثار المهلكة لأمر ما، وقع فى هذا الأمر لا محالة، ومن أجل هذا جاءت طائفة كبيرة من المنهيات والمحظورات مقرونة بعواقبها وآثارها، كى يخاف الناس، ويحذروا، بل ويتجنبوا الوقوع فى هذه المنهيات، وتلك المحظورات .

١١ ـ الوقوع فى المعاصى والسيئات مع الإصرار وإهمال التوبة :

وقد يكون الوقوع فى المعاصى والسيئات مع الإصرار وإهمال التوبة من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار أو الانهزام النفسى ؛ ذلك أن للمعصية مع الإصرار عليها وإهمال التوبة عواقب ضارة فى الدنيا والآخرة .

ولعل من أبرز العواقب الدنيوية الابتلاء بالاحتقار أو الانهزام النفسى، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** (٣٠) ﴾ [الشورى] . ﴿**ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** (١٠) ﴾ [الحج] .

١٢ ـ قياس واقع الأعداء اليوم بحاضرنا مع الغفلة عن ماضينا :

وقد يكون قياس واقع الأعداء واقع اليوم بحاضرنا مع الغفلة عن ماضينا من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار، والانهزام النفسى ؛ ذلك أن واقع الأعداء اليوم بالقياس إلى حاضرنا ينطق بأنهم يتربعون على عرش البشرية، ويوجهونها كما يريدون، وأننا لا نعدو أن نكون ذيولا أوأذنابا لهم، ولكن هذا الواقع يتغير، ولا يتجاوز أن يكون صفرا بالإضافة إلى ماضينا المشرق الزاهر الذى يصوره الشاعر بقوله :

ملكنا هـــذه الدنيـــا قرونـــا ... وأخضعهـا جـــدود خـالدونـــا
وسـطرنا صحـائف مـن ضيـاء ... فما نسي الزمـــان ولا نسينـا
حملناها سيوفـــا لامعـــات ... غداة الـروع تأبـى أن تلينــــا
إذا خـرجت من الأغمـاد يومـا ... رأيت الهـول والفتـح المبينـــا
وكـنـا حين يرميـنـا أنـــاس ... نؤدبـــهم أبـــاة قادريــــنا
وكنا حـــين يأخذنـــا ولـــى ... بطغيـــان نـــدوس له الجبينـــا

تفيض قلوبنـــا بالـهـــدى بأسا ... فما نغضى عـن الظلـم الجفونا
بنينا حقبـة فـى الأرض ملـــكا ... يدعمـــه شبـــاب طامحـــــونا
شباب ذللـــوا سبل المعـــالى ... ومـــا عرفـــوا سـوى الإسلام دينا
تعهدهـــم فأنبتهـــم نباتـــــا ... كريمـا طاب فى الدنيـــا غصـونا
هم وردوا الحيـــاض مباركـات ... فسالت عندهـــم مـــاء معينـــا
إذا شـــهدوا الوغـى كانوا كماة ... يدكـــون المعاقـــل والحصـــونا
وإن جـن المساء فلا تـراهـــم ... مـــن الإشفـاق إلا ساجـــدينا
شباب لـــم تحطمـــه الليالـى ... ولم يسلم إلى الخصـم العـرينا
ولم تشهدهـــم الأقـــداح يوما ... وقـد ملأوا نواديهـم مجـــونا
عرفـــوا الأغـــانى مائعـــات ... ولكن العـــلا صنعـت لحـــونا
وقد دانـــوا بأعظمهم نضـــالا ... وعلمـــا ، لا بأجرئهـــم عيـونا
فيتحـــدون أخلاقـــا عـــذابا ... ويأتلفـــون مجتمعـــا رزينـــا
فما عـرف الخلاعة فى بنـــات ... ولا عـــرف التخنـث في بنيـنا
ولم يتشدقـــوا بقشور عـلـــم ... ولـــم يتقيـــوا فـــى الملحـــدينا
ولم يتبجحوا فى كـــل أمـــــر ... خطيـــر ، كـــى يقـال مثقفونا
كذلك أخـرج الإسلام قومـى ... شبابًا مخلصـــًا حـــــرًا أمينـا
وعلمه الكرامـــة كيف تبنـــى ... فيأبى أن يقـيد أو يـهـــونا [1]

رابعًا : آثار الاحتقار أو الانهزام النفسى:

وللاحتقار أو الانهزام النفسى آثار ضارة وعواقب مهلكة، سواء على العاملين، أو على العمل الإسلامى :

أ ـ على العاملين :

أما على العاملين فكثيرة، وأهمها :

١ ـ مداهنة بل الارتماء فى أحضان الظالمين :

ذلك أن من ابتلى بالاحتقار أو الانهزام النفسى يتصور أن الظالمين والجبارين بمقدورهم أن يعملوا له شيئا، فيداهنهم بل ويرتمى فى أحضانهم، على نحو ما نشهده

---

(١) أبيات مختارة من قصيدة « شباب الإسلام » للشاعر : هاشم الرفاعى، ديوانه ص ٣٨٣، ٣٨٤ وقد القاها فى ندوة أقيمت بجمعية الشبان المسلمين بمصر مساء التاسع من فبراير سنة تسع وخمسين لمناقشة انحراف الشباب، وأبان فى هذه القصيدة عن : « خصائص شباب الإسلام » .

فى عالم المسلمين اليوم من مداهنة وانحناء قيادات، وتمريغها لوجهها وأنفها فى التراب لا لشيء إلا الخوف والرجاء من هؤلاء الظالمين المتجبرين، وأولئك فى حقيقة الحال لايملكون لأنفسهم ضرًا ولانفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فضلا عن أن يملكوا ذلك لغيرهم من الخلق .

٢ ـ الغزو فى النفس ، وفى الحرمات :

ذلك أن الاحتقار أو الانهزام النفسى يفتح الطريق أمام الماكرين والمتربصين لغزو هؤلاء المحتقرين أو المنهزمين نفسيا، فى أنفسهم وفى حرماتهم، ومقدساتهم من دين، ونسل، وعرض، ومال، وأوطان، على نحو ما يصنعه أعداؤنا بنا اليوم فى فلسطين، وفى غيرها من كل بقاع العالم، وإذا غزى الإنسان فى نفسه، وفى حرماته فماذا بقى له، وما قيمة الحياة بعد ذلك ؟

٣ ـ زيادة الرصيد من الإثم :

وذلك أنه باحتقاره أو انهزامه نفسيا قد فتح الباب أمام كثيرين ممن لديهم استعداد للوقوع فى مثل هذه الآفة كى يحاكوه، ويصنعوا مثله لا سيما إذا كان هو فى موقع الأسوة والقدوة ويتحمل هو إثم هؤلاء جميعا انطلاقا من قوله ﷺ : « . . . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا »[1] .

٤ ـ الخسران المبين فى الآخرة ما بقى الإصرار ولم تكن توبة :

إذ هو بتضييعه لنفسه ولغيره، قد حمل وزرًا وإثمًا عظيمًا ويلقى ربه بهذا كله، ولا إقلاع ولا توبة فتكون النار والعياذ بالله، وهذا هو الخسران المبين حقا، إلا أن تتداركه رحمة الله، قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ** ﴾ [الزمر] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما على العمل الإسلامى فكثيرة أيضا، وأهمها :

١ ـ قلة كسب الأنصار والمؤيدين :

ذلك أن الناس يتأثرون ويقتدون بالأقوياء الواثقين من أنفسهم وبربهم ومنهاجهم، أما المحتقرون أو المنهزمون نفسيا فإن الناس لا يأبهون بهم، ولا يستجيبون لهم، وبذلك يقل حجم الأنصار والمؤيدين .

---

[1] سبق تخريجه .

٢ ـ الفرقة والتمزق :

إذ وجود الاحتقار أو الانهزام النفسى فى داخل الصف يحدث انقساما فى هذا الصف ما بين مؤيد نصير وظهير، وما بين معارض منكر وبعيد، الأمر الذى يفتح الباب أمام المتربصين من أعداء الله للولوج، والإطباق والتطويق .

٣ ـ كثرة التكاليف وطول الطريق :

وهذا شىء بدهى ونتيجة حتمية طبيعية لقلة كسب الأنصار والمؤيدين، ولشيوع الفرقة والتمزق .

خامسا : علاج الاحتقار أو الانهزام النفسى :

وفى ضوء ما قدمنا من أسباب وبواعث للاحتقار أو الانهزام النفسى، يمكن وصف العلاج بل الوقاية، وذلك على هذا النحو :

١ ـ شغل أوقات الفراغ، والقضاء على البطالة بكل ما هو نافع ومفيد، وميادين الحياة باتساعها وتنوعها تجعل لكل واحد فى الناس وظيفة وعملا، ومن لا يصلح لهذا العمل يصلح لذاك، وهكذا كانت سيرته ﷺ مع أصحابه، لا يدعهم فى بطالة أو فارغين من العمل، ويحرص أن يكون كل واحد فى العمل الذى يتناسب مع جهده، وطاقاته، وإمكاناته، وبهذا حماهم من الاحتقار أو الانهزام النفسى .

٢ ـ تجنب انتقاص الآخرين، وتحقيرهم ما أمكن، كى نغلق الباب بذلك فى وجه من يسولون أو يزينون للمرء الاحتقار أو الانهزام النفسى .

٣ ـ الانسلاخ من الوسط المعروف بالاحتقار والانهزام النفسى، ثم الارتماء بين الوسط المعروف بالقوة، والشجاعة، والثقة بالله، وبمنهجه، وبرسوله، وبالنفس، فإن ذلك من شأنه، أن يعين على التخلص، بل الوقاية من الاحتقار أو الانهزام النفسى .

٤ ـ العمل بكل وسيلة ممكنة على إخراج حب الدنيا من القلوب ولا بأس أن تصير هذه الدنيا فى اليد، ما دامت من حلال، وما دامت بعزة نفس، وبغير تكالب، وما دام تعاطيها وسطا بين الإسراف والتقتير، ولا يضيع حق الله فيها، فإن المرء إذا نجح مع نفسه فى هذا الباب، سهل عليه التخلص بل الوقاية من الاحتقار أو الانهزام النفسى .

٥ ـ مواجهة من يعملون على إضعافنا والنيل منا، بالعمل الدؤوب مع الإتقان والجد تجنبا للفشل والإخفاق من ناحية، ومقابلة للوسيلة العملية المتقنة عند هؤلاء بمثلها من ناحية أخرى .

٦ ـ منح الناس حقهم فى التعبير عن آرائهم، وعما بداخلهم، وتقديم ذلك على الطعام، والشراب، واللباس، والسكن، فإن هذا من شأنه أن يقضى على الاحتقار أو الانهزام النفسى، وربما أسهم فى غرس الثقة فى النفوس من جديد، وما ذلك على الله بعزيز .

٧ ـ التعرف عن قرب على الله، وعلى رسوله، وعلى منهجه، بدوام النظر فى آيات الله المنظورة، والمسطورة، فإن هذا من شأنه أن يزرع الثقة فى النفوس، بعد أن يخلصها من الاحتقار أو الانهزام النفسى .

٨ ـ استشعار نعمة الله فى الكون، وفى النفس الظاهر منها والباطن، الدقيق منها والجليل، والقرآن الكريم يقودنا عمليا إلى ما ينبغى أن نستشعره ونبصره من هذه النعم، بل يقودنا إلى الثمرة المرجوة من وراء ذلك، وهى معرفة الله، والثقة به، وبمنهجه، والنزول على حكم هذا المنهج فى كل شىء عن طواعية ورضا .

٩ـ الاحتراز من المعاصى والسيئات صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، مع الحرص على الإنابة، والتوبة عند اقتراف شىء منها، فإن هذا من شأنه أن يطهر النفس، ويزكيها، ويمنحها الثقة والقوة .

١٠ ـ دوام النظر فى قصص النبيين، وخاتمهم محمد ﷺ وأتباعهم من الدعاة والمجاهدين، وحسبنا قصة موسى عليه السلام حين خرج من مصر ومعه قومه من بنى إسرائيل وتبعهم فرعون وقومه وبوغتوا بالبحر، وأصبحوا محصورين بين البحر، وبين العدو، حتى قال قائلهم : إنا لمدركون، ولكن موسى بقى قويا ثابتا بتثبيت الله له، معلنا أن الله لن يتركه، ولن يتخلى عنه لحظة واحدة، وصدق الله ما أعلنه حين قال: ﴿ **فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ(٦٦)** ﴾ . وبقيت محلا للعظة والعبرة إلى يومنا هذا وحتى قيام الساعة، ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً** ﴾ [الشعراء] .

وحسبنا أيضا موقفه ﷺ يوم الهجرة حين قال الصديق : يا نبى الله، لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا . فرد عليه قائلا : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن إن الله معنا ، وصدق الله ذلك فى قوله : ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)** ﴾ [التوبة] .

وموقفه كذلك من سراقة بن مالك يوم الهجرة حين قال له : « هل لك أن تكتم عنى، وأعدك سوارى كسرى وقيصر؟ » .

وقديما لما قدم ربعى بن عامر فى بساطته ـ لباسا ومركبا ـ على الفرس يريد الدخول على رستم، حين طلب رجلا يعرف منه ماذا يريد المسلمون، دخل فى سلاحه يدوس بفرسه البسط إلى أن انتهى إلى آخرها ونزل عنها وربطها بوسادتين، وأراد الدخول على رستم، فقالوا له : ضع سلاحك، فقال ـ فى عزة وإباء ـ : إنى لم آتكم فأضع سلاحى بأمركم، أنتم دعوتمونى، فإن أبيتم أن آتيكم إلا كما أريد، وإلا رجعت، فأخبروا رستم، فقال : ائذنوا له، هل هو إلا رجل واحد ؟

فأقبل يتوكأ على رمحه حتى خرق النمارق والبسط، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه بالبسط، فقالوا : ما حملك على هذا ؟ قال : إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه، فكلمه، فقال : ما جاء بكم ؟ قال : الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه، لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه، ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدا، حتى نفضى إلى موعود الله، قالوا : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقى، فقال رستم : لقد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه، وتنظروا ؟ قال : نعم، كم أحب إليكم ؟ يوما، أو يومين، قال : لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا، ورؤساء قومنا، فقال : ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر فى أمرك، وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل .

فقال رستم : أسيدهم أنت ؟ قال : لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم، فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال : هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟ فقالوا : معاذ الله أن تميل إلى شىء من هذا، وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه ؟

فقال : ويلكم، لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأى، والكلام، والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب [١] .

---

[١] انظر : حياة الصحابة للكاندهلوى ١/ ٢٢٠، ٢٢١، ٣/ ٦٨٨ ـ ٦٩٠ نقلا عن ابن جرير بتصرف كثير .

وما كان ربعى بن عامر فريدا فى هذه العزة والقوة النفسية، بل كان كل الصحابة هكذا، وتوارثها المسلمون كابرا عن كابر، حتى كانت عصور الضعف والانحطاط، فتغيرت الصورة، وتبدل الموقف، وجاءت الحركة الإسلامية، وإذا العزة تبعث من جديد، وإذ القوة النفسية هى الأصل والأساس فى الانتماء لهذه الحركة .

جاء فى مذكرات الدعوة والداعية قول واضعها، ومشيد أركانها : تحت عنوان : «نماذج من تصرفات الرعيل الأول » :

(كان هؤلاء الإخوة مثلا رائعًا، ونماذج طيبة من التمسك بأحكام الإسلام الحنيف فى كل تصرفاتهم، والتأثر بأخلاقه، ومشاعره فيما يصدر عنهم، من قول أو عمل، سواء أكان ذلك مع أنفسهم، أم مع غيرهم من الناس، استدعى المسيو سولنت باشمهندس القنال ـ يعنى قناة السويس بمصر ـ ورئيس قسم السكسيكون : الأخ حافظ عبد الحميد ـ أحد الستة الأول الذين كانوا نواة الحركة الإسلامية فى مصر ـ فى ذى القعدة (١٣٤٧ هـ مارس ١٩٢٨) ليصلح له بعض أدوات النجارة فى منزله، وسأله عما يطلب من أجر، فقال: ١٣٠ قرشا (بالعملة المصرية) ، فقال المسيو سولنت ـ بالعربى : أنت حرامى، فتمالك الأخ نفسه، وقال له بكل هدوء : ولماذا ؟ فقال : لأنك تأخذ أكثر من حقك، فقال له : لن آخذ منك شيئا، ومع ذلك، فإنك تستطيع أن تسأل أحد المهندسين من مرؤوسيك، فإن رأى أننى طلبت منك أكثر من القدر المناسب فإن عقوبتى أن أقوم بالعمل مجانا، وإن رأى أننى طلبت ما يصح أن أطلب فأسامحك فى الزيادة .

واستدعى الرجل فعلا مهندسا، وسأله، فقدر أن العمل يستوجب ٢٠٠ قرش، فعرفه المسيو سولنت، وأمر الأخ حافظ أن يبتدئ العمل، فقال له : سأفعل، ولكنك أهنتنى، فعليك أن تعتذر، وأن تسحب كلمتك، فاستشاط الرجل غضبا، وغلبه الطابع الفرنسى الحاد، وأخذته العزة بالإثم، وقال : تريد أن أعتذر لك، ومن أنت ؟ لو كان الملك فؤاد نفسه ـ يقصد حاكم مصر آنذاك ـ ما اعتذرت له، فقال حافظ على هدوء أيضا : وهذه غلطة أخرى يا مسيو سولنت، فأنت فى بلد الملك فؤاد، وكان أدب الضيافة وعرفان الجميل يفرضان عليك ألا تقول مثل هذا الكلام، وأنا لا أسمح لك أن تذكر اسمه إلا بكل أدب واحترام .

فتركه، وأخذ يتمشى فى البهو الفسيح، ويداه فى جيب بنطلونه، ووضع حافظ عدته، وجلس على كرسى، واتكأ على منضدة، وسادت فترة هدوء لا يتخللها إلا وقع أقدام المسيو الثائر الحائر، وبعد قليل، تقدم من حافظ، وقال له : افرض أننى لم أعتذر إليك فماذا تفعل ؟ فقال : الأمر هين، سأكتب تقريرا إلى قنصلكم هنا، وإلى سفارتكم

أولا، ثم إلى مجلس إدارة قناة السويس بباريس، ثم الجرائد الفرنسية المحلية والأجنبية، ثم أتراقب كل قادم من أعضاء هذا المجلس، فأشكوك إليه، فإذا لم أصل إلى حقى بعد ذلك، استطعت أن أهينك فى الشارع، وعلى ملأ من الناس، وأكون بذلك قد وصلت إلى ما أريد، ولا تنتظر أن أشكوك إلى الحكومة المصرية التى قيدتموها بسلاسل الامتيازات الأجنبية الظالمة، ولكنى لن أهدأ حتى أصل إلى حقى بأى طريق .

فقال الرجل : يظهر أننى أتكلم مع « أفوكاتو ـ أى محام ـ لانجار » .

ألا تعلم أننى كبير المهندسين فى قناة السويس، فكيف تتصور أن أعتذر لك ؟ فقال حافظ : وألا تعلم أن قناة السويس فى وطنى، لا فى وطنك، وأن مدة استيلائكم عليها مؤقتة، وستنتهى، ثم تعود إلينا، فتكون أنت وأمثالك موظفين عندنا، فكيف تتصور أن أدع حقى لك ؟ وانصرف الرجل إلى مشيته الأولى .

وبعد فترة عاد مرة ثانية، وعلى وجهه أمارات الثائر، وطرق المنضدة بيده فى عنف مرات، وهو يقول : أعتذر يا حافظ سحبت كلمتى، فقام الأخ حافظ بكل هدوء، وقال: متشكر يا مسيو سولنت، وزاول عمله حتى أتمه .

وبعد الانتهاء أعطاه المسيو سولنت ١٥٠ قرشا، فأخذ منها ١٣٠ قرشا ورد له العشرين، فقال له : خذها بقشيشا ـ أى إكراما ـ فقال : لا، لا، حتى لا آخذ أكثر من حقى، فأكون « حرامى »، فدهش الرجل، وقال : إنى مستغرب لماذا لا يكون الصناع أولاد العرب مثلك ؟ أنت : « فاميلى محمد ».

فقال حافظ : يا مسيو سولنت، كل المسلمين « فاميلى محمد » ولكن الكثير منهم عاشروا الخواجات، وقلدوهم ففسدت أخلاقهم، فلم يرد الرجل بأكثر من أن مد يده مصافحا، قائلا : متشكر، متشكر، كتر خيرك، وفيها الإذن بالانصراف)[1] .

وقال تحت عنوان: « الدعوة فى جباسات البلاح » : «اتصل بعض عمال الجباسات الفضلاء بالإخوان بالإسماعيلية، فنقلوا عنه الفكرة إلى إخوانهم، ودعيت إلى زيارة الجباسات، وهناك بايعت الإخوان على الدعوة، فكانت هذه البيعة نواة الفكر فى هذا المكان النائى .

وبعد قليل طلب العمال إلى الشركة أن تبنى لهم مسجدًا، إذ كان عددهم أكثر من ثلاثمائة عامل، وفعلا استجابت الشركة لمطلبهم، وبنى المسجد وطلبت الشركة من الجماعة بالإسماعيلية انتداب أخ من العلماء يقوم بالأمانة والتدريس .

---

[1] مذكرات الدعوة والداعية ص ٧٨، ٧٩ .

فانتدب لهذه المهمة فضيلة الأخ المفضال الأستاذ محمد فرغلى ـ المدرس بمعهد حراء آنذاك (أحد الذين أعدمتهم ثورة يوليو المباركة فى مصر عام ١٩٥٤ م بعد حادثة المنشية الملفقة) .

وصل الأستاذ فرغلى إلى البلاح، و تسلم المسجد، وأعد له سكنا خاص بجواره، ووصل روحه القوى المؤثر بأرواح هؤلاء العمال الطيبين، فلم تمض عدة أسابيع وجيزة حتى ارتفع مستواهم الفكرى، والنفسانى، والاجتماعى ارتفاعًا عجيبًا .

لقد أدركوا قيمة أنفسهم، وعرفوا سمو وظيفتهم فى الحياة، وقدروا فضل إنسانيتهم، فنزع من قلوبهم الخوف، والذل، والضعف، والوهن، واعتزوا بالإيمان بالله، وبإدراك وظيفتهم الإنسانية فى هذه الحياة، خلافة الله فى أرضه ـ فجدوا فى عملهم اقتداء بقول الرسول ﷺ: « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

ثم عفوا عما ليس لهم، فلم تأسرهم المطامع التافهة، ولم تقيدهم الشهوات الحقيرة، وصار أحدهم يقف أمام رئيسه عالى الرأس فى أدب، شامخ الأنف فى وقار، يحدثه فى حجة ومنطق، لا يقول ولا يقبل منه كلمة نابية، أو لفظة جافية، أو مظهرًا من مظاهر التحقير، والاستصغار، كما كان شأنهم من قبل .

وتجمعوا على الأخوة، واتحدوا على الحب، والجد والأمانة، ويظهر أن هذه السياسة لم تعجب الرؤساء، وقرروا أنه إذا استمر الحال على ذلك ستكون السلطة كلها لهذا الشيخ، ولن يستطيع أحد بعد ذلك أن يكبح جماحه، وجماح العمال .

ظن الرؤساء هذا فى الشركة، وفكروا فى إقصاء هذا الشيخ القوى الشكيمة عن العمل، وأرسل إليه الرئيس المباشر، فلما توجه إليه قال له : إن المدير أخبرنى بأن الشركة قد استغنت عن خدماتك، وأنها تفكر فى انتداب أحد العمال للقيام بعملكم فى المسجد، وهذا حسابكم إلى اليوم حسب أمر المدير .

فكان جواب الشيخ له بكل هدوء : ما كنت أظن يا مسيو فرانسوا أننى موظف بشركة جباسات البلاح، ولو كنت أعلم هذا ما قبلت العمل معها، ولكنى أعلم أننى موظف من قبل الإخوان المسلمين بالإسماعيلية، وأتقاضى مرتبى منهم محولا عليكم، وأنا متعاقد معهم لا معكم على هذا الوضع، وأنا لا أقبل منك مرتبًا، ولا حسابا، ولا أترك عملى فى المسجد، ولا بالقوة، إلا إذا أمرنى بذلك رئيس الجمعية التى انتدبتنى هنا، وهو أمامكم فى الإسماعيلية، فاتفقوا معه كما تريدون، واستأذن، وانصرف،

وسقط فى يد إدارة الشركة، وصبرت أياما، لعل الشيخ يطلب منها مرتبه، ولكنه كان قد اتصل بى فى الإسماعيلية، فأوصيته بالتمسك بموقفه، وألا يدع مكانه بحال، وحجته معقوله، ولا شىء لهم عنده .

لجأت الشركة إلى الإدارة، واتصل مديرها المسيو مانيو بمحافظ القنال الذى اتصل بدوره بالمأمور بالإسماعيلية، وأوصاه أن يقوم على رأس قوة لعلاج الموقف، وحضر المأمور بقوته، و جلس فى مكتب المدير .

وأرسل فى طلب الشيخ الذى اعتصم بالمسجد، وأجاب الرسول : لا حاجة لى عند المأمور، ولا عند المدير، وعملى بالمسجد، فإذا كان لأحدهما حاجة فليحضر لى، وعلى هذا فقد حضر المأمور إلى الشيخ، وأخذ يطلب إليه أن يستجيب لمطالب المدير، ويترك العمل ويعود إلى الإسماعيلية .

فأجاب بمثل ما تقدم، وقال له : تستطيع أن تأتينى من الإسماعيلية بكلمة واحدة فى خطاب، فأنصرف، ولكنك إذا أردت استخدام القوة، فلك أنه تفعل ما تشاء، ولكنى لن أخرج من هنا إلا جثة لا حراك بها، ووصل النبأ إلى العمال، فتركوا العمل فى لحظة واحدة، وأقبلوا متجمهرين صاخبين، وخشى المأمور العاقبة، فترك الموقف، وعاد إلى الإسماعيلية، واتصل بى للتفاهم على الحل .

ولكنى اعتذرت له بأننى مضطر إلى التفكير فى الأمر، وعقد مجلس إدارة الجمعية للنظر، ثم أجيبه بعد ذلك، وفى هذه الأثناء يؤسفنى أن أقول : إننى حضرت إلى القاهرة لمقابلة العضو المصرى الوحيد فى مجلس إدارة الشركة، فوجدت منه كل إعراض عن مصالح العمال، وكل انحياز إلى آراء الشركة ومديرها، وكل تجرد من أى عاطفة فيها معنى الغيرة الوطنية، قابلت بعد ذلك مدير الشركة، وسألته عما ينقمه من فضيلة الشيخ، فلم أجد عنده إلا أنهم يريدون شخصا يستسلم لمطالبهم، وكان من كلامه : إننى صديق لكثير من زعماء المسلمين، ولقد قضيت فى الجزائر عشرين سنة، ولكنى لم أجد منهم أحدا كهذا الشيخ الذى ينفذ علينا أحكاما عسكرية، كأنه جنرال تماما، فناقشته فى هذا الكلام وأفهمته أنه مخطئ وأن الشركات تقسوا على العمال، وتنقص من حقوقهم وتستصغر إنسانيتهم، وتبخل عليهم، وتقتر فى أجورهم، فى الوقت الذى يتضاعف ربحها، ويتكدس، وأن من الواجب علاج هذه الحال بعلاج نظم هذه الشركات، ووجوب قناعتها باليسير من الربح .

واتفقنا أخيرا على أن يبقى الأستاذ الشيخ فرغلى شهرين حيث هو، وأن تقوم الشركة بتكريمه عند انتهاء هذه المدة، وأن تطلب رسمياً من الإخوان من يحل محله من المشايخ، وأن تضاعف للشيخ الجديد راتبه، وتعنى بسكنه، ومطالبه وفى نهاية المدة عاد فضيلة الشيخ فرغلى وتسلم مكانه فضيلة الأستاذ الشيخ شافعى أحمد، واستمرت الدعوة تشق طريقها فى هذه الصحراء باسم الله مجريها، ومرساها [١] .

إن مثل هذا القصص يولد فى النفس معنى الاقتداء والتأسى أو على الأقل المحاكاة والتشبه وبمرور الزمن يمكن القضاء على الاحتقار أو الانهزام النفسى .

١١ ـ النظر بإمعان ودقة فى العواقب المترتبة على الاحتقار أو الانهزام النفسى، الدنيوية والأخروية، الفردية والجماعية، على النحو الذى أسلفنا، فربما كان لذلك دور كبير فى القضاء على الاحتقار أو الانهزام النفسى .

١٢ ـ قيام ولى الأمر بواجبه من رعاية نفسه أولا، وتربيتها على الإسلام الصحيح الذى يمنح العزة، والكرامة، والثقة بالنفس، ثم فتح المجالات وحمايتها، ورعايتها لتربية الأمة جميعا على هذا الإسلام، فيسهم بذلك فى اقتلاع جذور الاحتقار أو الانهزام من داخل النفس، ويغرس مكانها الشجاعة، والقوة والعزة النفسية .

١٣ ـ عدم الانبهار بحاضر الأعداء فى مدنيتهم المادية التى يعيشونها الآن، وعدم تقليدهم كذلك فيما هم عليه من تأخر وانحطاط خلقى، مع اليقين أن هذا الحاضر إلى زوال لأنه مبنى على غير أساس صحيح، وماكان كذلك لا يدوم طويلا، وأن الخير للمسلم أن يعيش حاضره المتميز على أساس من كتاب الله، ومن سنة نبيه محمد ﷺ ومن ماضيه المشرق الزاهر، ومن العمل الصادق الدؤوب بالليل والنهار حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولا، فإن لذلك دورا كبيرًا فى القضاء على الاحتقار أو الانهزام النفسى من جديد على معنى القوة والعزة الإسلامية .

١٤ ـ وأخيرا، الاستعانة بالله، ودوام الضراعة إليه أن يخلصه ويخلص كل مسلم من آفة الاحتقار أو الانهزام النفسى، وهو سبحانه يعين من يصدق فى الاستعانة به، واللجوء إليه، وفى الحديث أنه ﷺ كان كثيرا ما يدعوا بهذا الدعاء فى الصباح والمساء:

« اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم . . . » .

---

[١] ١٠٨ ـ ١١٠ نفس المصدر .

وفى رواية ثانية : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال » .

وفى رواية ثالثة : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»[١] .

---

[١] سبق تخريجه فى الجزء الثالث، آفة « التسويف » .